الفلسفة الهندية

لحضرة الباحث الادیب صمویل افندي يوحنا الطرابلسي (تابع ما قبله)

(٦) الفادانتا

اما فادانتا اي میمانزا الثاني فالمعروف عنهُ اكثر من المعروف عن میمانزا الاول لان تعاليمهُ طُبعت في كلكتا عام ١٨١٨ م تحت عنوان تعاليم براهما وقد قال البعض بقدم هذا المذهب الاَّ ان العلاَّمة كولبروك خالفهم في ذلك واثبت انهُ من احدث المذاهب السنسكريتية

ومعنى الفادانتا غاية فدا وهو كما سبق القول كلهُ تبيان لعقائد فدا وشرح لغوامضه . وكتابهُ المعنون بتعاليم براهما يحتوي ٥٥٥ قانونًا موضوعة في اربعة ابواب وكل باب مقسوم الى اربعة فصول فالباب الاول يبحث عن الله وخلقه للعالم . وفي احد فصول هذا الباب ردٌّ عنيف على مذهب كابيلا الذي يضع الطبيعة موضع الله ومذهب كانادا الذي ينسب الى الجواهر قوة لا يمكن ان تكون لغير براهما . والباب الثاني تابع للاول ويزيد عليهِ في دحض كل المذاهب الفلسفية الاَّ مذهب میمانزا الاول . وفي الباب الثالث ذكر الوسائط التي يحصل بها الانسان على المعارف والخلاص . وفي تضاعيف ذلك اتى على قسم من العلوم النفسية (البسيكولوجيا) والمع الى حالات النفس ثم اورد بالتتابع ابحاثًا طويلة عن اليقظة والنوم والاحلام والغشيان والموت . والفصلان الاخيران من هذا الباب طافحان بالكلام عن ممارسة اعمال التقوى لاسيما التأملات التي يرتفع معها الانسان الى الله . وآخر الكتاب الباب الرابع وفيهِ تتمة الردود التي ابتدأ فيها ثم استطرد منها الى الكلام على نتائج التأملات وافاض في الشرح عنها وخلاصة كلامهِ انها وحدها تقود النفس الى معرفة الله وانها الطريق القويم التي بها تصل النفس الى براهما وتمتزج بهِ

وقد قال العلاَّمة كولبروك انهُ وجد قياس ارسطو في كتب الفادانتا فأيَّد بذلك رأي القائلين قبلهُ ان ارسطو اخذ منطقهُ عن سكان الهند . على ان هذه الدعوى تحتاج الى دليل قاطع وما برح المستشرقون حتى اليوم يقولون بفضل قريحة ارسطو وانها المبتكرة لعلم المنطق والله اعلم

هذه هي خلاصة المذاهب الفلسفية في الهند على ان هنالك مذاهب اخرى لا يجدر بنا ان نضرب عن ذكرها صفحًا لشهرتها وشيوعها في ماليك البلاد كالجينوسفيت وغيرها والجيمنوسفيت (اي الحكماء العراة) جماعة من الحكماء يقضون عمرهم عراة وقد ذكرهم ششرون الروماني اثناء كلامهِ عن الآلام الشديدة التي يقاسيها كثير من الناس بثبات عجيب قال ان في الهند حكماء يقضون عمرهم عراة ويحتملون برد الثلج وحلة الضباب من غير تأفف ولا ضجر

واذا رأوا النار استسلموا لها فتحرق اجسامهم وهم صامتون. وقيل ان الاسكندر المكدوني اعجب بفضائل هؤلاء الحكماء وآدابهم

ومن المذاهب المنتشرة في الهند والتي لها عند اهلها المحل الاول البوذية وقد بحث المستشرقون عنها كثيرًا واختلف اختلاف بينهم في ما اذا كانت البوذية التي تضمُّ تحت لوائها زهاء ثلثمئة مليون من البشر هي معتقد ديني بحت او هي ابحاث علمية يجب حسبانها في مصاف المذاهب الفلسفية على اننا اذا تتبعنا ما ارتآهُ العلامة كولبروك في هذا الصدد نقول ان بوذا زعيم هذا المذهب وواضعهُ لم يكن الاَّ فيلسوفًا ولم يقل يومٌ كان يذيع تعاليمهُ انهُ ينشرها باسم الآلهة. وما كانت تعاليمهُ الاَّ مبادئ ادبية وبعض اراء عمَّا وراء الطبيعة وهذه الآراء هي التي احدثت انقلابًا في قومهِ عظيمًا واكسبتهُ اسمًا وشرفًا باذخًا وصيتًا بعيدًا وقد كان في اول عمرهِ تلميذًا طائعًا للبراهمة ثم انفصل عنهم لاختلافهم في المبادئ والآراء وعلى هذا الاختلاف بنى مذهبهُ الذي عُرف بهِ. وقد كان مذهبهُ لاول امرهِ غاية في البساطة وواضحًا كل الوضوح الاَّ انهُ ما لبث طويلاً حتى تخللهُ الفساد وتطرق اليهِ التغيير والتبديل فاصبح عقيدة دينية خلاف غاية واضعهِ الاول الذي وضعهُ مذهبًا فلسفيًّا بحتًا كما سبق القول واما تعاليمهُ فتضع للشعب والزمان الذي وجدت فيهِ

على ان العقبة الوحيدة التي كانت تعترض سبيل الباحثين عن هذا المذهب هي عدم وجود مصدر وثيق يعتمد عليهِ في نقل اخبارهِ والوقوف على حقيقة شؤونهِ ذلك لان بوذا لم يكتب شيئًا بنفسهِ وانما قضى معظم عمرهِ في غابات الهند وحراجها يعلم الناس وينشر تعاليمهُ بالوعظ فكل ما كان يقولهُ ويعظ بهِ جمعهُ من بعدهِ تلامذتهُ الكثيرون واضافوا اليهِ الشروح الطويلة ووضعوها في مؤلفات كثيرة وبلغات متعددة كالسنسكريتية والمغولية والبالية وغيرها حتى صار يتعذر الوقوف على المصادر الحقيقية منها ناهيك عمَّا في تلك المؤلفات من التناقض وذلك ما حمل علماء الفرنجة على البحث عن مؤلف يحوي مذهب بوذا الاصلي ويذكر اخبار حياتهِ ومنقولات حديثهِ كما هي حتى توفق العلاَّمة هودجسون الانكليزي بعد العناء والجهد الى اكتشاف مؤلف في اللغة السنسكريتية محفوظ في احد اديرة البوذيين سيئ مدينة نيبال فنسخهُ وارسلهُ الى انكلترا ومنها اتصل الى سائر العالم المتمدن

ولا يخفى ان جميع المذاهب الهندية الفلسفية والدينية تعلِّم بانتاسخ اي تقمُّص الانسان المتتابع في اشكال مختلفة مع ما في ذلك من الفوائد وهذا الاعتقاد الراسخ في اذهان الهنود كان السبب في ظهور الوعود بالسلام الابدي الذي نادت بهِ جميع المذاهب السنسكريتية. اما

بوذا فنادى مثلها وقال ان الوسائط التي يتصل بها الى نيرفانا هي العلوم اي المعارف على اطلاقها من طبيعية وادبية وغير ذلك ثم بممارسة الاعمال الستة السامية وهي الزكاة والفضيلة والمعارف والشهامة والصبر والمحبة . ثم قال ان كل انسان يستطيع الوصول الى براها اذا عمل بموجب الاشياء المار ذكرها مهما كان جنسه وفرعه ومكان مولده من الارض . وليس ثمة من حاجة الى مزيد الكلام على البوذية وانما نكتفي بالقول انها تممت الفلسفة السنسكريتية واكملتها

اما معرفة زمن ابتداء النهضة العلمية في الهند او ما كاد يقرب من زمن ابتدائها الحقيقي فمن القضايا التي تركت الى المستقبل الاَّ اننا نعلم ان البوذية ولا خلاف في تاريخها ظهرت في الهند قبل التاريخ المسيحي بخمسة قرون وان جميع المذاهب الفلسفية هناك الاَّ الفاذانا اقدم عهداً منها واذا لم يكن لدى المستشرقين اليوم من الادلة ما يكفي لتعيين زمن ابتداء الفلسفة السنسكريتية فان لديهم ما يكفي للقول بانها اقدم عهداً من للفلسفة اليونانية

على ان هنالك نفراً من العلماء يرون ان الفلسفة الهندية احدث عهداً من اليونانية وانها اخذت عنها ونسجت على منوالها مستدلين على ذلك بقياس ارسطو الموجود مثلهُ في الفلسفة الهندية الاَّ ان فريقاً آخر يرى غير ذلك وينكر عليهم دعواهم هذه ويقول لاندري كيف لجأ اولئك العلماء الى مثل هذه المزاعم الواهنة حال كون الفلسفة اليونانية احدث عهداً من الهندية ولا يبعد ان تكون قد اخذت عنها مبادئ كثيرة وذلك للادلة الآتية

اولاً . ان اللغة اليونانية مشتقة من اللغة السنسكريتية . ثانياً ان تعدد الآلهة عند اليونان مأخوذ عن الاساطير الهندية المدونة في كتاب الفدا . ثالثاً وحدة الاعتقاد بالتناسخ عند الامتين

ولا ريب ان اللغة اعظم كاشف عن اخلاق الامة التي تتخاطب بها وعن آدابها وعوائدها وسائر احوالها الاجتماعية بل هي اعظم شيء في حياة الامة الادبية فاذا كانت اللغة التي تتكلم بها الامة جاءتها من الخارج فمن الضروري ايضاً ان تحمل معها اشياء كثيرة من آراء الامة الصادرة عنها ومن عوائدها وآدابها . وقد اعتقد اليونان ان لغتهم نشأت في مكانها وظل هذا الاعتقاد راسخاً في اذهان العلماء الزمن الطويل الى ان ظهر حديثاً علم اللغات (الفيلولوجيا) وكشف القناع عن مصادر لغات كثيرة ومن جملتها اليونانية فبين انها مشتقة من اللغة السنسكريتية فقطعت جهيزة قول كل خطيب

والميثولوجيا مثل اللغة فان بين الميثولوجيتين اليونانية والهندية تشابهاً عظيماً يقرب من تشابه اللغتين لاسيما واذا علمنا من التاريخ ان اليونان لم يضعوا اساطيرهم بانفسهم وانما احدثوا فيها من التبديل ما ينطبق على عاداتهم ويوافق اذواقهم اما هي فقد حملت اليهم من اجدادهم الآريين

وهم قبائل هندية نزحت عن بلادها في العصور الغابرة . اما وجه الشبه بين الميثولوجيتين فهو من حيث وحدة الرأي واعتبر كتأليه القوات الطبيعية والافراد الممتازين في قومهم واعطاء الرتب للآلهة والصفات التي ينعتونها بها . وليس من العدل حسبان هذا التشابه بين الميثولوجيتين من باب الاتفاق والصدفة وانهُ لم ينتج عن وحدة الفكر في الاصل . اما الدليل الثالث وهو وحدة الاعتقاد في التناسخ فقد مرَّ بنا ان القول بالتناسخ عقيدة راسخة في اذهان الهنود على تنوع مذاهبهم واختلاف اديانهم وان الغاية من التناسخ تطهير النفس وصيرورتها الى الكمال ولاجل هذا وضع فلاسفة الهند ودعاة الدين فيها تلك الشرائع التي من يعمل بها ينال السعادة ويتخلص من احكام التناسخ المريعة . ومثلهم اعتقد اليونان التناسخ وعمَّت بهِ فلاسفتهم . وذهب البعض الى ان هذه العقيدة اتصلت بهم من المصريين على ان التاريخ يدحض هذا الزعم بدليل ان اليونانيين كانوا يعرفون التناسخ ويعلِّمون بهِ واتخذوا اسم اورفه رمزًا عليهِ قبل ان وجدت العلائق بين الامتين باحقاب متطاولة حتى ان ابا التاريخ هيرودتس قال بوجود هذه العقيدة في قومهِ قبل ايام فيثاغورس الذي قيل انهُ اخذ علومهُ عن كهنة المصريين . على ان هذا الفيلسوف قال بالتناسخ وقولهُ فيهِ لا يقرب من قول المصريين عنهُ . اما افلاطون فقال قول فلاسفة الهند من قبلهِ ان السبيل الوحيد لخلاص الانسان من هول احكام التناسخ هو اتباع سنن الآداب والفضائل ودرس العلوم والفلسفة . وقد ظلَّ هذا الاعتقاد شائعًا في اليونانية زمنًا طويلاً ولم يمُت بموت فيثاغورس بل زاد رسوخًا وانتشارًا لاسيما يوم مزجت الفلسفة اليونانية بالشرقية . هذا واذ قد تبين لك ان اللغة التي دوَّن فيها اليونان بدائع قرائحهم النيرة مشتقة من اللغة الهندية وانهم سجدوا في معابدهم للارباب التي سجد لها الهنود من قبلهم واعتقدوا في التناسخ معتقد الهنود فلا تستغرب بعد ذلك كلهِ القول بان فلسفتهم جاءت من المكان الذي صدرت منهُ اللغة والدين

فقد ضعف والحالة هذه قول الذين يذهبون بان الهند اخذت فلسفتها عن اليونان ورجح جانب القائلين ان اليونان اخذوا فلسفتهم عن الهند لأن الهند رقيت في باحة الحضارة وانتدُن قبل اليونان باحقاب متطاولة وازهرت الفلسفة فيها حينما كان اليونان تائهين في ظلمات البداوة والجهل . على انهُ وان تقدمتهم الهند في الزمان فقد قصرت عنهم من حيث سمو الفلسفة وتعدد المباحث العلمية والاجادة فيها ومع ذلك فالهندية ملأى بالفوائد التي لا تصدر الاَّ عن قرائح وقادة وعقول سامية

وقد لبثت الهند الى امدٍ غير بعيدٍ عند احد الذي يعتد اليهِ منذ الالوف من السنين